

الفصل السادس

وأقبل من في الدار من النساء ومن انضم إليهن من نساء القرية البائسات على الطعام مسرعات يتزاحمن بالمناكب، ويتدافعن بالأيدي، ويتزاجرن باللفظ واللحظ، ويرتفع في أثناء ذلك منهن دعاء لصاحب الدار أن يوثق الله حزامه، ويُعلي مقامه، ويصرف عنه الداء، وينصره على الأعداء.

ونحن نسعى وجلات خجلات، يدفعنا الجوع والأدب، ويمسكنا الحياء والاحتشام، حتى إذا استدرت الجماعة حول الجفان قلَّ الكلام، وقرَّت الأجسام، واضطربت الأيدي وعملت الأفواه.

وأنا أرى هذا كله فيؤذيني منظره ويقع من نفسي موقعاً أليماً، ما أبعد ما بين هذه الأيدي الغليظة الخشنة قد تقلص جلدها وتقبَّض، وهي تغوص بما فيها من الخبز غوصاً في القصاع فتصيب منها ما تستطيع، وما بين تلك الأيدي الرقيقة الناعمة المترفة التي لم تكن تمتدُّ إلى الأطباق إلا هينة، والتي لم تكن تمس ما في الأطباق إلا بهذه الأدوات التي يعرفها أهل المدن خاصة بل يعرفها المترفون من أهل المدن خاصة!

ما أبعد ما بين هذه الأفواه الفاغرة التي يُلقي فيها الطعام إلقاءً على عجل فلا يكاد يستقر فيها حتى تزدرده الحلق! وكأن الطبيعة لم تودع هذه الأفواه حساً تجد به لذة ما تأكل وما تشرب، وإنما اتخذتها طريقاً إلى الحلق ثم إلى الأجواف، وما بين تلك الأفواه الصغيرة الضعيفة التي لم تكن تفتح إلا بمقدار، والتي لا تلتهم ولا تلتقم ولا تنتهي بما فيها إلى حلق تزدرد، وإنما تطيل المضغ وتستمتع بما يمسه من الألوان، ثم تنتهي به على مهل إلى حلق تسيغه في أناة ورفق، كأنما الأكل فن من الفنون لا بد فيه من الروية واصطناع المهل والأناة!